

# الهجرة في الشعر العربي

بقلم عبد اللطيف اليونس

وعدم استقرار . ويعود السبب في هذا الى الحياة القبلية التي كانوا يحيونها، والى المغريات الجمّة التي كانت تدفعهم للتنقل من ارض الى ارض ، ومن بقعة الى اخرى . ويستطيع القارئ ان يسميها « هجرة » ، أو أن يضي عليها أي اسم أراد . وهي لا تخلو عن كونها تغيير مكان بمكان ، واستبدال قوم بقوم ، وبيئة بيئية .

ولا نستطيع ان نغف الا عند عدد قليل ومحدود من الشعراء الذين هجروا موطنهم ، وهاجروا منه . . أو ارتحلوا الى أماكن اخرى . . ولعل « الشنفرى » اول شاعر تحدث عن «الهجرة» ودعا اليها :

أقيموا بني أمي صدور مطيتكم

فإني الى قوم سواكم لأميل

فقد حمّت الحاجات والليل مقمر

وشدت لطيات مطايا وأرحل

وهو اول شاعر ، من القدامى، الذين وصلنا شعرهم، يعدد فوائد « الهجرة » ، ويذكر بواعثها ومسبباتها ، في شعر قوي متين :

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى

وفيها لمن رام العلى متحول

لعمرك ما في الارض ضيق على امرىء

سعى راهبا او راغبسا وهو يعقل

لاستف ترب الارض . . كي لا يرى له

علي من الطول امرؤ متطول

وارتحل « امرؤ القيس » الى بلاد الروم ، يستعدي مليكها على قتلة ابيه - وهو القائل :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه

وأيقن انا لاحقان بقيصرا

فقلت له : لا تبك عينك انما

نحاول ملكا . . او نموت فنعدرا

وكان « التكبسب » في الشعر اكثر ما يصيب الشاعر في الجاهلية . ورواة التاريخ يتهمون « اعشى قيس » بانه اول من استن فكرة « التكبسب » ، وولج بابه ، واتخذه وسيلة للعيش . فكان ينتقل من مكان الى آخر للمدح وقبض الثمن ! وكان الناس يقبونه ب « صناجة العرب » - فكم رفع اسما وضيعا ، ووضع اسما رفيعا ! ومما يروى عنه انه كان في بلاط « كسرى » ، وقد بلغ به الارق مبلغه ، فراح يردد :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ؟

وما بي من حزن ، وما بي معشوق

وصدف ان مر كسرى ، وسمع « الاعشى » ، فسأل عنه ، وعن الكلام الذي يردده . ولما ترجم له قال : « ان الذي يارق من دون حزن أو عشق يكون لصا » .

ومن الشعراء الجاهليين الذين هاجروا الى خارج بلدهم، «النابغة الذبياني» الذي اتهم بحب « المتجرده » زوجة « النعمان بن المنذر » ملك الحيرة ، فقد هاجر من العراق الى دمشق ، واستوطنها . وظل يستعطف

قبل ان نتحدث عن الشعراء المهجريين والتجارة، وعن وطنيتهم ، وحنينهم الى الوطن الام ، نحب ان نعطي صورة سريعة عن الهجرة في الشعر العربي القديم . الشاعر مرآة قومه . . تنعكس عليها حياتهم الخاصة والعامية ، وتعطي الاجيال القادمة صورة حية عنها - بكل ما فيها من مساوىء ومحاسن ، وامل ويأس ، واشراق وتجهم ، وانطلاق وجمود .

والهجرة في حياة العرب وتاريخهم شيء ضخم . وعامل اساسي من اقوى عوامل وجودهم وبقائهم، واكثرها اهتماما بالدراسة ، وامعانا بالبحث والتنقيب .

فالعربي الذي انطلق من صحرائه ، وانفلت من أسر رمالها الظامئة المجدبة ، وارتحل شرقا وغربا ، وعسكر هنا . . واقام هناك . . وانتقل بين آسيا وافريقيا واوروبا، ومن ثم امريكا ، ينشر اخلاقه ، ويشر بتعاليمه ، ويفمر الدنيا بفيض لا ينقطع من للاء نفسه المتوثبة لحرية، وقلبه المتفتح للحياة .

هذا العربي . . الذي هجر أرضه الى ارض جديدة، لم يسئل أرضه الاولى، ولم يجفها ، وانما ذهب ليضم اليها ارضا اخرى ، ويصلها بها . . ويشدها نحوها بسلاسل من لغته وتراثه ، ونفحات وجدانه وايمانه . واذا بالارض الجديدة جزء من الارض القديمة ، وشعوب غريبة وكثيرة، تتكلم لغته، وتدين بدينه ، وتؤمن برسالته . . .

ذاك فتح لم يعرفه الفاتحون . ومجد وقف الناس عنده حيارى باهتين . البقعة العربية تتوسع وتمتد . . حتى تصل الخليج بالمحيط ، وتتخطاها بمدنيتها - يوم لا مدينة - الا عند العرب ، وبحضارتها - يوم كانت الحضارة كلمة جامدة . . لا معنى لها ، ولا مدلول .

يوم كانت اوروبة تعيش في ظلام دامس من التأخر والجهل، وتخضع لانظمة اجتماعية جائرة ، واقطاعية مستبدة طاغية !

يوم كان الجهل يعشش في قلوب الناس وعقولهم، ويتخذ من اذهانهم مطايا ، ومن ألسنتهم دعاة ومبشرين ! في تلك الفمرة الرهيبة من الجمود والتأخر والتخلف، كان العرب دعاة هدي وخير واصلاح .

ولولا هجرتهم من أرضهم ، الى بقاع الدنيا ، لما كانت تلك الفتوحات - التي كان رائدها المحبة ، والانسانية، والعقيدة الخيرة السمحة .

ونحن هنا في هذا المقال ، لسنا بمعرض نتحدث عن الهجرة بصورة عامة ومسهبة ، ولا عن بحث جزئياتها وظروفها ، والمكاسب التي حققتها الامة العربية منها . . وانما نحن بمعرض البحث عن الهجرة في الشعر العربي، واثرها في حياة بعض الشعراء العرب . متوخين الايجاز - ما امكن ، ومتوخين اعطاء صورة عن حياة الشعراء الذين كان دأبهم التنقل من مكان الى مكان ، وهدفهم الهجرة من بلد الى بلد ، ومن اقليم الى اقليم . .

وربما كان الشعراء العرب اكثر شعراء العالم تنقلا

« النعمان » بقصائد بالغة جد الروعة . وهو صاحب البيت المشهور - يخاطب به « النعمان » - ويقال انه ابلغ ما قيل في الوصف :

وانك كالليل السذي هو مدركي

وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن الشعراء الذين هاجروا الى دمشق في عصر الجاهلية « حسان بن ثابت الانصاري » . وقد أدرك الاسلام وعاش حتى عهد معاوية . وله في وصف ملوك الغساسنة قصائد رائعة .

وفي العصور الاسلامية كثرت هجرة الشعراء العرب من بلد الى بلد . بعضها في سبيل العمل ، واكثرها في سبيل الكسب . ومن الصعب ذكر اسمائهم جميعا . لان ذلك يقتضينا ذكر اسماء اكثر الشعراء . ولكن لا بد من ان نقف عند بعضهم - ولو وقفة عابرة .

هاجر « الاخطل » الى دمشق من العراق . واقام في بلاط الخليفة ، وكان شاعر الامويين .

وارتحل « ابو تمام » مع والده الى مصر . وكان ما يزال فتيا . لكن امله لم يتحقق بالاقامة في ارض الكنانة ، فعاد الى سورية ، بعد ان عاتب امير مصر لانه ابطأ باجازته: الفطر والاضحى قد انساخا ولي

امل ببابك صائم لم يفطر  
حول ولم ينتج نذاك . . وانما

ترقب الحبلى لتسعة أشهر  
وذهب « ابو تمام » الى ايران . ثم عاد الى العراق . واستقر في مدينة الموصل حيث عين مديرا لبريدها ، الى ان توفي فيها - وهو القائل :

بالشام اهلي . وبغداد الهوى . وانا  
بالرقتين ، وبالفسطاط اخواني

وما أظن النوى ترضى بما عصفت  
حتى تشافهني أقصى خراسان  
وهو القائل ايضا :

وطول مقام المرء في الحي مخلق  
لدياجتيه فاغترب تتجدد

فاني رأيت الشمس زبدت محبة  
الى الناس، ان ليست عليهم بسرمد  
ولم تعطني الايام نوما مسكنا  
ألدب به ، الا بنوم مشرد

والشاعر الذي ضرب بسهم وافر في الهجرة والتنقل كان « ابا الطيب المتنبي » الذي ولد في « الكوفة » ، ووالده من اليمن . وظهرت عليه دلائل النجابة ، وسيماء الذكاء من صغره ، فحمله والده الى سورية حيث أدخله المكتسب ليتعلم . ولم يلبث الوالد ان توفي وترك ابنه يتيما . ولما كبر شرع يتنقل بين القبائل العربية، ويتخذ منها اصدقاء . ولم يلبث ان اتهم بادعاء « النبوة » ، فسجنه والي حمص . ولما أطلق سراحه ذهب الى اللاذقية ، ثم صعد الى حلب ، حيث استقر في بلاط « سيف الدولة » مدة طويلة مدحه خلالها باروع الشعر العربي ، واخذه واغناه - وغادر حلب بعد ذلك الى مصر مارا في جبال لبنان :

وجبال لبنان . وكيف بقطعهما

وهو الشتاء ، وصيفهن شتاء  
سد الثلوج بها علي مسالكي

فكأنها بياضها سوداء  
وعاد من مصر الى العراق . ثم سافر الى بلاد

فارس . واغتيل وهو في طريق عودته الى دمشق بالقرب من مدينة الكوفة .

و « ابو نواس » من الشعراء البارزين الذين ارتحلوا الى مصر . وله في مدح اميرها « الخصب » قصيدة تعتبر من رائع الشعر العربي . منها :

تقول التي من بيتها خف مركبي  
عزيز علينا ان نراك تسير

أما دون مصر للغنى متطاب  
بلى ان أسباب الغنى لكثير

فقات لها ، واستعجالتها بوادر  
جرت فجرى في جريهن عبر

دعيني أكثر حاسديك برحلة  
الى بلد فيها « الخصب » أمير

اذا لم تزر أرض « الخصب » ركابنا  
فأي فتى بعد « الخصب » نزور ؟

فتى تنبت الامال من غوث كفه  
ويعلم أن الدائرات تدور

ويقول المؤرخون : حينما وصل ابو نواس الى قوله: «دعيني أكثر حاسديك برحلة» فقال له الامير : « وسيكثر حاسدوها ان شاء الله » . وأمر له بالف دينار أنفقها الشاعر كلها قبل ان يعود الى بلده .

وارتحل « ابو العلاء المعري » الى بغداد ، وكان ينوي الاقامة فيها . وكانت في ذلك الحين ملتقى الشعراء والفقهاء والعلماء . ولكنه اضطر للعودة الى سورية بعد الحادث المؤلم الذي جرى له في مجلس « الشريف المرتضى » . وله في وداع بغداد ابيات رقيقة - يقول في مطلعها :

أودعكم يا اهل بغداد والحشى  
على جمرات ما ينين من اللذع

ويربط بعض المؤرخين بين خروج « ابي العلاء » من بغداد وبين قوله :

ولم أعرض عن اللذات الا  
لأن خيارها عني خسنه

وقوله :

لو أنصف العيش لم تدم صحابته  
وما غدركنا ، ولكن عيشنا غدرا

\*\*\*

وقد جرى ذكر « الهجرة » على السنة كثير من الشعراء . وما ابلغ هذه الصورة ، يصور بها احدهم نفسه وهو « عمر بن ابي ربيعة » :

أخا سفر جواب أرض تقاذفت  
به « فلوات » فهو أشعث أغبر

قيل : ان « هارون الرشيد » بعد ان عاد من احدى غزواته في بلاد الروم - وكان له غزوتان في السنة ، اسماهما : « الصائفة » و « الشتاية » - طلب من في بابه من الشعراء . فدخل « الاصمعي » . فاتخذ الخليفة متكأ له ، وقال : أنشدني ما عندك . فأنشده قول « عمر بن ابي ربيعة » :

رأت رجلا . أما اذا الشمس عازضت  
فيضحي ، واما بالعشي فيحضر

أخا سفر جواب أرض تقاذفت  
به فلوات فهو أشعث أغبر

قليل على ظهر المطيعة ظله . . .  
سوى ما نفى عنه الرداء المحبر

فقال الرشيد : لكأني ذلك الرجل .

يقول « الطغرائي » في « لاميته » المشهورة باسم « لامية العجم » :  
 ان العلى حدثتني ، وهي صادقة  
 فيما تحدثت أن العز في النقل  
 لو أن في شرف المأوى بلوغ منى  
 لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل  
 وشجع « الامام الشافعي » على « الهجرة » ، ويجب  
 النزوح عن الاوطان :  
 ما في المقام لدي عقل وذو أدب  
 من راحة فدع الاوطان ، واغترب  
 سافر تجد عوضا عن تفارقه  
 وانصب فان لذيد العيش في النصب  
 اني رأيت وقوف الماء يفسده  
 ان سالطاب ، وان لم يجر لم يطب  
 والشمس لو وقفت في الفلك دائمة  
 للمها الناس من عجم ومن عرب  
 والتبر كالترب ملقى في أماكنه  
 والعود في أرضه نوع من الخشب  
 فان تغرب هذا عز مطلبه . .  
 وان تغرب ذلك عز كالذهب  
 وقال ايضا :  
 اذا قيل في الاسفار ذل ومحنة  
 وقطع الفيافي ، واقتحام الشدائد  
 فموت الفتى خير له من حياته  
 بدار هوان بين واش وحاسد  
 وهو القائل :  
 امطري لؤلؤا جبال سرنديب  
 وفيضي آبار تكرور تبرا  
 همتي همة الملسوك ، ونفسي  
 نفس حر تبرى المذلة كفرا  
 انا ان عشت لست أحرم قوتا  
 واذا مت لست أحرم قبراً  
 مثل هذا الابهاء العربي ، فيفيض به الشعر العربي .  
 وقل ان تقرأ لشاعر مجيد الا وتجد هذا الابهاء ينبض في  
 قصائده ، ويسيل على يراعتة . يقول « جرير » :  
 واني لعفء الفقر مشترك الغنى  
 سريع اذا لم أرض داري انتقباليا  
 ويقول « سلمة بن يزيد » - وهو يرثي اخاه :  
 فتى كان يدينه الغنى من صديقه  
 اذا هو ما استغنى ويبعده الفقر  
 ويقول « كلثوم بن عمرو » :  
 ان الكريم ليخفي عنك عسرته  
 حتى تراه غنيا ، وهو مجهود  
 ويقول « حاتم الطائي » :  
 فما زادنا بقيا على ذي قرابة  
 غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر  
 ويقول « ابو فراس الحمداني » :  
 اذا الليل أضواني سبط يد الهوى  
 وأذلت دمعاً من خلائقه الكبير  
 ويقول « بدوي الجبل » :  
 وأحمل عن اخواني العسر جاهدا  
 ويبعدني عنهم اذا أسروا اليسر  
 ونفسي لو أن الجمر مس اباها  
 على بشرها الريان لا حترق الجمر

ونحب ان نختم هذا الفصل بقصة الشاعر « علي بن  
 زريق » الشاعر البغدادي الذي ارتحل الى المغرب يمتدح  
 أميرها . واحب الامير أن يداعبه فقال له : « قد مدحنا  
 بقصيدتك هذه ، وسمعناها من سواك قبل ان نسمعها  
 منك » .

فأغتم الشاعر . وكان قد غادر بغداد ليظفر من أمير  
 المغرب بمهر خطيبته ، وكان آلهما قد أبوا ان ينوا له عليها  
 الا بعد ان يقدم « المهر » الذي طلبوه - وكان مبلغا جسيما .  
 وفي اليوم التالي بعد ان استنفدت النكتة غايتها ، أرسل  
 الامير من يتفقد الشاعر ليجزيه ، فوجدوه ميتا وتحت  
 وسادته قصيدة من رائع الشعر العربي - ولعلها اروعه  
 وأبدعه واحلاه ، وآتقه دياجا ، وأجماله سياقه ، وأرقه  
 معنى . وهذه بعض ابياتها :

لا تعذليه . فان العذل يولعه  
 قد قلت حقا ، ولكن ليس يسمعه  
 جاوزت في لوميه حدا أضربه  
 من حيث قدرت أن اللوم ينفعه  
 فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا  
 من عنفه فهو مضنى القلب موجهه  
 قد كان مضطلعا بالخطب يحمله  
 فضلعت بخطوب البين أضلعه  
 يكفيه من روعة التفنيد ان له  
 من النوى كل يوم ما يروعه  
 ما آب من سفر الا وأزعجه  
 عزم على سفر بالرغم يزعمه  
 تأبى المطالب الا أن تكلفه  
 للرزق سعيا ولكن ليس يجمعه  
 كأنما هو في حل ومرتحل  
 موكل بفضاء الله يذرعه  
 اذا الزمان أراه في الرحيل غنى  
 ولو الى السند أضحى وهو يقطعه

\*\*\*

أستودع الله في بغداد لي قمرا  
 بالكرخ من فلك الازرار مطاعه  
 ودعته ، وبودي لو يودعني  
 صفو الحياة واني لا أودعه  
 وكم تشفع بي أن لا أفارقه  
 وللضرورات حال لا تشمعه  
 وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحي  
 وأدمعي مستهلات وأدمعه  
 لا اكذب الله ثوب العذر منخرق  
 عني بفرقتة لكن أرقعه  
 اني أوسع عذري في جنائته  
 بالبين عنه ، وقلبي لا يوسعه  
 أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته  
 وكل من لا يسوس الملك يخلعه  
 ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا  
 شكر عليه فعنه الله ينزعه  
 اعتضت من وجه خلي بعد فرقتة  
 كأسا يجرع منه ما أجرعه  
 كم قائل لي ذقت البين قلت له :  
 الذنب والله ذنبي لست أدفعه

عبد اللطيف اليونسي